علي محمود طه

حياته وشعره

للأستاذ أنور المعداوي

—١١—

تصفح المجلد الثاني من كتاب « وحي الرسالة » للأستاذ الزيات ، وقف عند الصفحة الخامسة والأربعين بعد الثلاثمائة ، واقرأ ماجاء بهذه الصفحة تحت هذا العنوان : « أرواح وأشباح ».

« على الضفة الشجراء من مصيف المنصورة عرفت علي محمود طه ، وعلى هذه الضفة الخضراء من مربعهـــا قرأت « أرواح وأشباح » ، وكان بين اللقية الأولى للصديق وبين القراءة الأخيرة للشاعر إحدى وعشرون سنة .

كان حين عرفته في إبان شبابه ، وكنت حين عرفني في عنفوان شبابي ؛ وابن آدم في هذه السن ربيع من أوبعة الفردوس لايدرك بمحدود الشعور ، ولا يوصف بلغة الشعر . فهو منضور الخلقة ، مسجور العاطفة ، مسحور المخيلة ، لا ينشد غير الحب ، ولا يبصر غير الجمال ، ولا يطالب غير اللذة ، ولا يحسب الوجود إلا قصيدة من الغزل الساوى ينشدها الدهر ويرقص عليها الفلك . وعلى ذلك كنا أيام تعارفنا وتآلفنا : هو على حال عجيب من مواس الهوى وما لابسها من ألوان وصور ، وأنا على عهد قريب من ترجمة (آلام فرتر) وما سايرها من أحلام وذكر !

قال لي صديق حسين ونحن عائدان من نزهتنا اليومية في الشقة الخلوية من شارع البحر : مل بنا إلى قهوة (ميتو) أعرفك بشاب من ذوي قرابتي يرضيك خلقه ، ويطربك حديثه ، وقد يعجبك شعره . وكان شارع البحر كما هو اليوم متنزه المدينة ، وكان نصفه الغربي لا يزال مخطوطا بين النيل والحقول ، فلا ترى على جانبيه غير مماص القصب ، ومشارب الكازوزة ، وعرائش الكرم وألفاف الشجر تغفيها هذه القهوة .

دخلنا القهوة فوجدنا في باحتها بعض الأغريق وعلى إحدى مناضدها المتنزلة في رقيق البدن شاحب الوجه فاتر الطرف ، ينظر في سكون ويقرأ في صمت . فلما رآنا هش بقريبه ورفع لي ،

الشرائع ووكدتها في النفوس الاديان ودعا إليها كل مذهب صالح على ظهر الأرض ، ولكن الشرائع والأديان والمذاهب أرادت ان تمكن مع هذه المعاني انسانية الانسان وحريته ، وان تشيع الأخوة والرحمة بين الناس ، وان تسمو بهم إلى أعلى الدرجات ، لا ان تحكم بهذه المعاني سوائم ترعى الكلاء وترد الماء مقهورة مسخرة لا تعرف في الحياة إلا المرعى وعصا الراعي .

إن قوانين البشر كلهم — إلا قوانين الشيوعيين — تقدس حرية الإنسان وتبيح له أن يعمل ويجد ملء حريته ، وتحاول ان تحكمه بقانون من عقله ووجدانه وتعهد للناس سبيل السعي والتنافس ثم تنظر فتعطي من خسر من مال من ربح ، وتمنح من خاب من سعى من نجح وتأخذ من حصل لتطعم وتداوي وتعلم من لم يحصل . والبشرية عاملة للعدل والرحمة والأخوة والاشتراكية الحرة الصحيحة ساعية إليها في نظام من الحرية والخلق والرحمة والبر .

فأما هذه الشيوعية التي تربى وراء حجب من حديد ، خشية ان يطلع الناس على فضائلها ومحاسنها فيبلغ علمنا بها أنها تشيع العداوة والبغضاء ، افقرت الأغنياء ولم تغن الفقراء ويبلغ علمنا بها أنها تريد ان تهبط بالإنسان إلى مستوى الحيوان ثم تمكنه من المرعى .

ثم أمر لايزال المفكر في حيرة منه حتى يهتدي إلى سره ، هذه الصلة بين جامعي الذهب ، وعباد المال في تاريخ الإنسانية وبين المذهب الذي يحرم الملك والانتفاع برأس المال . اعني الصلة بين اليهودية والشيوعية . ان اليهود كما يعرف الباحثون مآرب في اشاعة القلق والفوضى في العالم ، ولهم مقاصد في هدم النظم دلت عليها كتبهم ونمت عليها أعمالهم .

فهذا الذي جمع بين عبادة المال وتحريمه ، وهذا الذي ألف بين اليهودية والشيوعية . فاعتبروا — رويا أولي الأبصار .

عبد الوهاب عزام

ثم كان التعارف . وطاوحناه طرفا من الحديث ثم طلب إليه صديقي أن ينشدنا بعض شعره ، فنشط لهذا الطلب وارتاح كأنما نفسنا من كربه أو خففنا من عبئه ؛ ثم قال في سذاجة الريف ووداعة الطفل : نشرت لي جريدة السفور هذه القصيدة وقدمتها بهذه الكلمة ... ثم أدى المقدمة عن ظهر الغيب وهم بإنشاد القصيدة . وكنت حين ذكر « السفور » قد أصغيت سمعي وجمعت بالي ، فلم يكد يفرغ من سرد المقدمة حتى صحت به :

— أأنت صاحب هذه القصيدة ؟

— نعم .

— وأنا صاحب هذه المقدمة .

عجيب ! !

كان ذلك في سنة ١٩١٨ ، وكانت جريدة السفور يحررها يومئذ الأعضاء الأصدقاء من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكان النظر فيما يرد على الجريدة من الشعر موكولا لصديقي الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ولي .. فألقى إلينا البريد فيما ألقى هذه القصيدة غفلا من الإمضاء ، فقرأناها للاختيار ، ثم قرأناها للاختبار فوجدنا قوة الشاعر الموهوب تطغي على ضعف الناشيء البادىء ، فضننا بها على السل ، وصححنا ما فيها من خطأ ، وقدمت لها بضعة أسطر تنبأت فيها بنبوغ الشاعر ، ونصحت له أن يرفد قريحته السخية بمادة اللغة وآلة الفن ، وأخذت عليه أن يكره قيثارة الروح على النغم الحزين واللحن الباكي وهو لا يزال في روق الشبيبة كما يقول شعره .

ثم تعقبت بعد ذلك عليا : تعقبت آثاره ، وتعرفت أطواره ، وتقصيت أشعاره ، فإذا الفراشة الهائمة في أرياض المنصورة ورياض النيل نصبح « الملاح التائه » في خضم الحياة ، و « الأرواح الشاردة » في آفاق الوجود ، و « الأرواح والأشباح » في أطباق اللانهاية ! وإذا الناشيء الذي كان يختشب الشعر ويتسمح فيه ، يندو الشاعر المحلق بجناح الملك أو بجناح الشيطان ، يشق الغيب ، ويقتحم الأثير ، ويصل السماء بالأرض ، ويجمع الملائكة بالناس ، ويقضي بين حواء وآدم ! »

من هذه الكلمات التي كتبها الأستاذ الزيات عن الشاعر ، ومن دراستنا الخاصة لحياته على ضوء صلتنا به وقراءتنا له ، نخرج بأن شاعرنا المصري كان في الفترة الأولى من عمره — أي وربيع العمر في إبانه — كان صاحب شخصية انطوائية .. وبقدر ما كانت هذه الشخصية منطوية على نفسها فيما قبل الثلاثين ، كانت فيما بعد الثلاثين شخصية أخرى لا يكاد يربطها بالماضي صلة من الصلات أي أن علي طه كان في تلك الفترة الأخيرة من حياته صاحب شخصية انبساطية ! وكان حين لقيه الزيات ذلك اللقاء الأول في حدود العشرين من عمره على أكثر تقدير ، وكان الزيات في حدود الثلاثين على وجه التقريب . ولا بد من هذا التحديد لعمر الشاعر والكاتب لنظفر بمفتاح جديد يكشف لنا عن أثر البيئة المادية والمعنوية في تكوين هذا المزاج القاتم الذي قد حياة الشاعر وفنه فيما قبل الثلاثين والذي وجه حياة كثير من الشباب الذين فطروا على رهافة الحس وإشراق النفس وتوقد العاطفة ، في تلك الفترة التي كان فيها علي طه في إبان شبابه وكان الزيات في عنفوان هذا الشباب ، وهي الفترة التي انتظمت الربع الأول من القرن العشرين .

يقول لنا الأستاذ صاحب الرسالة — وهو قول يؤكده حديث الشاعر عن نفسه ويؤكده شعره — إن علي طه كان في تلك الفترة الأولى من حياته « فتى رقيق البدن شاحب الوجه فاتر الطرف ينظر في سكون ويقرأ في صمت » .. وأنه أخذ عليه في تلك الكلمة التي قدم بها قصيدته المنشورة في مجلة السفور ١٩١٨ « إكراه قيثاره على النغم الحزين واللحن الباكي وهو لا يزال في روق الشبيبة كما يقول شعره » . ومن هاتين الزاويتين نستخلص هذه الحقيقة الناصعة ، وهي أن شاعرنا كان واحدا من هذه الشخصيات الانطوائية الحزينة ؛ المحلقة في كل جو قاتم وكل أفق حالم وكل سماء تتوهج بلهب الحنين والحرمان !

والحق أن هذا المزاج الحزين كان مزاج العصر أو طابع العصر أو « مرض العصر » إذا شئت أن تسميه ... وكان هو الروح المسيطرة على شباب تلك الفترة ممن رفت مشاعرهم ورقت خواطرهم والتهب منهم الخيال والوجدان . وإذا قلنا مرض العصر فإنما نعني تلك الفترة التي خلقت جيلا من الشباب كان الزيات واحداً منهم وكان علي طه ، وهو الجيل الذي صنعته بيئة خاصة ذات تربية خاصة وتقاليد خاصة وثقافة خاصة ، ذلك الذي يصفه الزيات أدق وصف ويعبر عن هواجسه وأحلامه وآلامه أصدق تعبير ، في هذه

الكلمات التي ساقها في معرض الرد على من سأله لماذا ترجم آلام فرتر ؟

« تسألني لماذا ترجمت فرتر ... والجواب عن هذا السؤال حديث ، والحديث غداً سيكون قصة ، وليس يعنيك اليوم منها إلا ما نجم عنها : قال جيته يوماً لصديقه أكرمان : « كل امرىء يأتي عليه حين من دهره يظن فيه أن (فرتر) إنما كتبت له خاصة » ... وأنا في سنة ١٩١٩ كنت أجتاز هذا الحين : شباب طاير حصره الحياء والانقباض والدرس وتعط التربية وطبيعة المجتمع في حس مشبوب يتوقد شعوراً بالجمال ؛ وقلب رغيب يتحرق ظمأ إلى الحب ، ونوازع طماحة ما تنفك تجيش ، وعواصف سيالة ما تكاد تماسك ... فالطبيعة في خيالي شعر ، وحركات الدهر نغم ، وقواعد الحياة فلسفة ! وكان فهمي لكل شيء وحكمي على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال ، وزور نتائجه المثل الأعلى ؛ ثم غمر هذه الحال التي وصفت هوى دخيل هادىء ولكنه ملح ، فسبحت منه في فيض سماوي من النشوة واللذة ، وأحسست أن وجودي الخالي قد امتلأ ، وقلبي الصادي قد ارتوى ، وحسي الفائر قد سكن . وتخيلت أن حياتي الحائرة قد أخذت تسير في طريق لاحب تنتثر على مدارجه نواضر الورود ، وترف على جوانبه نوافح الريحان ، وتزهو على حواشيه ألوان عبقر ، وترقص على حفافيه عرائس الحور . وذهبت أسلك هذا الطريق السحري محمولا على جناح الهوى كأنني (فوست) على جناحي (ميفستوفاليس) حتى ذكرني الزمان الثاقل فأقام فيه عقبة اصطدم عندها الخيال بالواقع والحبيب بالخاطب والعاطفة بالمنفعة ! على أنني بقيت على رغم الصدمة حياً ، ولا بد للحي أن يسير !

تطلعت وراء العقبة أنظر الطريق فإذا الأرض قفر والورد عوسج والريحان حمض والعرائس وحوش ... فشعرت حينئذ بالحاجة إلى الرفيق المؤنس ! ولكن أين أنشد ما أبغي وحولي من الفراغ نطاق مخيف ، وأمامي على أسنة الصخور أشلاء وجثث ؟ هذه أشباح صرعى الهوى تتراءى لعيني ، وهذه أرواح قتلاه تتهافت علي ، وهذه سجلات مصارعهم بين يدي . فلم لا أحدو بأناشيدهم رواحلي ، وأقطع بمناجاتهم مراحلي ، وألتمس في مواجعهم لهواي عزاء وسلوة ؟

قرأت : هيلويز الجديدة ، وريفيه ، وأتالا ، وأدولف ، ودمينيك ، وماريون دلورم ، ومانون ليسكو ، وذات الكاميليا ، وجرازيلا ، ورفائيل ، وجان دكريف ... وتوثقت بأشخاصها صلاتي ، وتصعدت في زفراتهم زفراتي ، وتمثلت في نهاياتهم المحزنة نهايتي ، ولكنهم كانوا جميعاً غيري ! تتفق في الموضوع وتفترق في الوضع ، كالنساء النوادب في مناحة ، تندب كل واحدة منهن فقيدها وموضوع الأسى للجميع واحد : هو الموت !

فلما قرأت « آلام فرتر » سمعت نواحاً غير ذلك النواح ، ورأيت روحاً غير هاتيك الأرواح ، وأحسست حالا غير تلك الحال ...

فنيت في « جيته » وقادني إلهامه وروحه ، وأهبت بلغة القرآن والوحي أن تتسع لهذه النفحات القدسية فأسعفتني ببيانها الذي يتجدد على الدهر ويزهو على طول القرون . ثم أصبح فرتر بعد ذلك لنفسي صلاة حب ونشيد عزاء ورقية هم ! ! كأنما كان « جيته » يناديها من وراء الغيب حين يقول في تقدمته لفرتر : وأنت أيتها النفس ... إذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى ، فاستمدي الصبر والعزاء من آلامه ، وتلمسي البرء والشفاء في أسقامه ، واتخذي هذا الكتاب صاحباً وصديقاً إذا أبى عليك دهرك أو خطؤك أن تجدي من الأصدقاء من هو أقرب إليك وأحنى عليك ! »

أرأيت إلى هذه الصورة التي رسمها الزيات لنفسه ولشباب تلك الفترة التي حددناها لك بالربع الأول من هذا القرن الذي نعيش فيه ؟ إنها صورة تنطبق على صاحبها كل الانطباق وتصدق على شاعرنا المصري كل الصدق : شباب يغلب عليهم الحياء والانطواء والميل إلى العزلة والولع بالخيال ، وبهذه الأسلحة التي لا تقطع ولا تدفع كانوا يواجهون الواقع في معركة الحياة . وما أكثر ما كان الواقع يصدمهم بمرارته ويلفح شعورهم بقسوته فيرتدون عقب كل جولة من جولات النضال ونفوسهم مثخنة بالجراح . كان الحياء يحول بين نوازعهم الوقادة وبين متعة الانطلاق ، وكان الانطواء يحول بين مواطفهم الجياشة وبين نعمة التحرر ، وكانت العزلة تحول بين رغائبهم الوثابة وبين فرصة الظهور ، ويقف الخيال بعد هذا كله ليعترض طريق مطامحهم العليا لأن المثل العليا لا يمكن

أن تتحقق على جناح الخيال ... ومن هنا وجد هذا المزاج القاتم وهذا الطبع الحزين ، نتيجة لهذه الحياة التي كانت تحيط بهم وهي خالية من أفراح النفس ومباهج الروح وأعياد الشعور ؟

لقد كان الجو الذي يعيشون فيه جو «الرومانسية الوجودية» أي جو الإحساس بالفراغ والسكون والفقر ، يعقبه جو الخلوة إلى النفس والطبيعة وهواجس الأحلام. هذه «الرومانسية الوجودية» التي أصابتهم «بمرض العصر» في ميدان الحياة قد دفعتهم دفعاً إلى جو « الرومانسية الفنية » في ميدان الأدب ، حتى أصبح المزاج القاتم لا يكاد إلا بالشعر القاتم ، والطبع الحزين لا يعجب إلا بالأدب الحزين ، سواء أكان ذلك في الإنتاج الأدبي المقروء أم كان ذلك في الإنتاج الذاتي والمنقول ... ومن هنا كان شعر على طه فيما ينظم شعر اللوعة والدمعة والأنين والحنين ، وكان أدب الزيات فيما يترجم أدب الحسرة والزفرة والبكاء والعويل ! وها هو الزيات يقدم إلينا مزاج العصر ممثلا في الربع الأول من هذا القرن عند ما كان يبحث عن نفسه ملتمساً لها العزاء والسلوة في قراءة لون خاص من القصص « توثقت بأشخاصها صلاته وتصعدت في زفراتهم زفراته ، وتمثلت في نهايتهم المحزنة نهايته » وفي ترجمة لون خاص من القصص يرضي في نفسه تلك النزعة الملحة إلى الاكتئاب والانقباض والحزن !

وكان الجمهور القارىء من الشباب في تلك الفترة -- أعني الجمهور الذي يقتصر على القراءة ولا ينتج ، — كان لا يستهويه شيء بقدر ما تستهويه تلك القصص التي تحفل بكل لون من ألوان المأساة وتتصل بكل سبب من أسباب الفاجعة . وقد وجد الجمهور القارىء عند الجمهور الكاتب بغيته المثلى وزاده المنشود ، فأقبل في شغف بالغ ونهم لا يحد ، على « آلام فرتر » و «رفائيل» للزيات ، وعلى « بول وفرجيني » و « ماجدولين » المنفلوطي ... وعلى كل إنتاج أدبي من هذا الطراز !!

وإذا اردت أن تبحث عن مقومات هذا المزاج المنقبض عند الشباب في الربع الأول من القرن العشرين فارجع إلى البيئة المادية والمعنوية فهي المسئولة عن صنع هذا المزاج ... لقد كانت بيئة الشباب في محيط الأسرة والمدرسة والمجتمع تبعث على الانطواء وتدعو إلى التكبيل بكل قيد من القيود ؛ فالتقاليد الموروثة تفرض فرضاً على الشباب بما فيها من نظم عتيقة وأساليب صارمة ، وكل عبث بهذه التقاليد عبث بقواعد الشريعة والعرف والآداب والأذواق حتى إذا خطر للشباب شيء من التجديد في وسائل المعيش ومظاهر الزي وطرائق التفكير ، كان ذلك في رأي القائمين على أمرهم خروجا على النظام وثورة على الاحتشام ، واندفاعا إلى هاوية الغي والفساد وانحرافا عن معاني الفضيلة ومناهج الأخلاق !! ... وإلى هذه البيئة يشير الزيات في مقاله من الصفحة الرابعة والأربعين من المجلد الأول لكتاب « وحي الرسالة » عند ما يقول: «وأنا في سنة ١٩١٩ كنت أجتاز هذا الحين : شباب طري حصره الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع في حس شبوب يتوقد شعوراً بالجمال ، وقلب رغيب يتحرق ظمأ إلى الحب ، ونوازع طامحة ما تنفك تجيش ، وعواصف سيالة ما تكاد تتماسك » ..

وكانت بيئة انعدم فيها الاتصال الكامل بين الرجل والمرأة، حين وقفت التقاليد الموروثة وبقايا الحجاب الصفيق سداً هائلا وجداراً منيعاً بين الشباب من الجنسين ... وحرمان البيئة من المرأة وهي بهجة الحياة الكبرى ونبعها الدافق باللذة والجمال والحب ، كان له أبعد الأثر في خلق الرومانسية الوجودية والفنية في حياة على طه الأولى وإنتاجه الأول ، وكانت مصدراً عميقاً من مصادر القلق الدفين والأسى الملح والشكاة التي تعلن عن نفسها في كثير من شعر « الملاح التائه » !

ولقد كانت المرأة أحد المفاتيح الكبرى لشخصية هذا الشاعر المصري ، شخصيته الأدبية والإنسانية فيما قبل الثلاثين وفيما بعد الثلاثين وكانت نقطة التحول بين شعر وشعر وبين حياة وحياة !!

(يتبع) أنور المعداوي

من الأدب الفرنسي

قصائد وأقاصيص

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد المختارة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها .

وثمنه ٣٥ قرشاً عدا أجرة البريد